تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكى

بقلم
الدكتور عبد الحليم منتصر
الأستاذ بكلية العلوم – جامعة عين شمس
والمنتدب مديراً لجامعة الكويت

ترجمة داود

يلقبونه بالحكيم الماهر الفريد ، والطبيب الحاذق الوحيد ، جالينوس أوانه ، وأبقراط زمانه ، العالم الكامل ، وهو الشيخ داود الأنطاكى ، ولد بأنطاكية ، وإليها انتسب ، وكان ذلك فى القرن العاشر الهجرى . وأنطاكية مدينة تقع فى شمال سورية ، وسط سهل خصب جميل فى الحوض الأدنى لنهر العاصى ، يرجع تاريخها إلى ثلاثمائة سنة قبل الميلاد ، وكانت من أشهر مدائن سورية فى سالف الأيام .

قرأ داود كتب الأقدمين من اليونانيين من أمثال أبقراط وديسقوريدس وجالينوس كما قرأ لابن سينا ، والرازى والزهراوى وغيرهم ، وعنى بدراسة الطب العلاجى خاصة وتحضير الأدوية والوصفات وما نسميه الصيدلة ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه الضخم « تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجاب » الذى اشتهر باسم « تذكرة داود » :

الكتاب

ويقع فى نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير : وقد قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، تتضمن مقدمة وأربعة أبواب ، خص المقدمة بتعداد العلوم المذكورة فى الكتاب ، وحال الطب معها ، ومكانته وما ينبغى له ولمتعاطيه وما يتعلق بذلك من الفوائد . وتكلم فى الباب الأول عن كليات هذا العلم ومداخله ، كما أفرد الباب الثانى لقوانين الإفراد والتركيب وأعماله العامة ، وما ينبغى أن يكون عليه من الخدمة ، نحو السحق ، والقلى والغلى ، والجمع والإفراد ، والمراتب ، والدرج ، وأوصاف المُقَطِّع والمُلَيِّن والمُفَتِّح إلى غير ذلك . وتكلم فى الباب الثالث عن المفردات والمركبات ، وما يتعلق بها من اسم وماهية ومرتبة ، ونفع ، وضرر ، ورتبه على حروف المعجم : أما الباب الرابع فقد تكلم فيه عن الأمراض وما يخصها من العلاج وبسط العلوم المذكورة ، وما يخص العلم من

النفع ، وما يناسبه من الأمزجة ، وما له من المدخل فى العلاج .

الجزء الأول من الكتاب

يقول داود فى مقدمة كتابه ، « عار على من وهب النطق المميز للغايات ، أن يطلب رتبة دون الرتبة القصوى ، ويقول كفى بالعلم شرفاً أن كلا يدعيه ، وبالجهل ضعة أن كلا يتبرأ منه ، والإنسان إنسان بالقوة إذا لم يعلم ، فاذا علم كان إنساناً بالفعل »

ويقول عن الطب : إنه كان من علوم الملوك ، يتوارث فيهم ، ولم يخرج عنهم خوفاً على مرتبته . وقد عوتب أبقراط فى بذله للأغراب ، فقال « رأيت حاجة الناس إليه عامة ، والنظام متوقف عليه ، وخشيت انقراض آل أسقليموس ، ففعلت ما فعلت » ثم يضيف داود « ولعمرى لقد وقع لنا مثل هذا ، فانى حين دخلت مصر ، ورأيت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى إلى أوضع يهودى للتطبب ، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم ، يدرس ليستفيد به المسلمون ، فكان ذلك وبالى ونكد نفسى وعدم راحتى من سفهاء لازمونى قليلا ثم تعاطوا الطب فضروا الناس فى أموالهم وأبدانهم وأنكروا الانتفاع بى » .

ويمضى القول بداود فيضيف « على أنى لا أقول إنى وأبقراط سالمان من اللوم ، حيث لم نتبصر ، فيجب على من أراد ذلك التبصر والاختبار والتجارب والامتحان فاذا خلص له بعد ذلك شخص منحه »

ولمزيد حرص القدماء على حراسة العلوم وحفظها ، اتفقوا على ألا تعلم إلا مشافهة ولا تدون ، لئلا تكثر الآراء ، فتذبل الأذهان عن تحريرها اتكالا على الكتب ، قال المعلم الثانى (الفارابى) فى جامعه : «واستمر ذلك إلى أن انفرد المعلم الأول — يريد أرسطو — بكمال الكمالات فشرع فى التدوين ، فهجره أستاذه أفلاطون على ذلك فاعتذر عنده عن فعله » .

وقد قسم داود العلوم والمعارف إلى أقسام ، عرفها وسماها ، وحدد مدلولاتها فلم يترك كيمياء أو فلكاً أو رياضة أو فقها ، أو منطقاً ، إلا رسم حدوده ، وبين أغراضه وحدد مراميه . ثم عاد إلى الطب فقال «ينبغى لهذه الصناعة الإجلال والتعظيم والخضوع لمتعاطيها ، لينصح فى بذلها ، وينبغى تنزيهه عن الأراذل ، والضن به على ساقطى الهمة ، لئلا تدركهم الرذالة عند واقع فى التلف فيمتنعون ، أو فقير عاجز ، فيكلفونه ما ليس فى قدرته » . قال هرمس الثانى « وهذا العلم خاص بآل أسقليموس » ، وكان أبقراط يأخذ العهد على متعاطيه فيقول « برئت من قابض أنفس الحكماء ، إن خبأت نصحاً ، أو بذلت ضراً أو كلفت بشراً أو تدلست بما يغم النفوس وقعه ، أو قدمت ما يقل عمله ، إذا عرفت ما يعظم نفسه ، وعليك بحسن الخلق ، بحيث تسع الناس ، ولا تعظم مرضاً عند صاحبه ، ولا تسر إلى أحد عند مريض ، ولا تجس نبضاً وأنت معبس ، ولا تخبر بمكروه ، ولا تطالب بأجر وتقدم نفع الناس على نفعك واستفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما فى وسعك فان ضيعته فأنت ضائع » .

ما أجدر العاملين بهذه المهنة ، أن يعوا نصائح داود ، وأن يعملوا بها . أما قسم أبقراط فما زال حتى اليوم معمولا به ، لا يمارس صناعة الطب ، إلا من ردد القسم ، وحبذا لو رددوا أيضاً نصائح عالمنا الشيخ داود الأنطاكى .

وأورد داود كثيراً من النصائح العامة كالنهى عن تناول الخبز الحار لإحداث العفونة والبخار ، أو لطيف فوق كثيف كبطيخ ولحم ، وما عهد من جمعه ضرر كسمك ولبن . قال ويجب محاذاة الفم بما يتناوله منه ، وتصغير اللقمة ، وطول المضغ ، ولا يدخل غذاء على آخر قبل هضمه ، ولا يجوز التملى بحيث تسقط الشهوة ، بل يقطع وهى باقية . وينبغى أن يمزج الحلو بالحامض ، والحريف بالمالح ، والقابض بالمحلل ، وأن يجعل

الغذاء مضاداً للزمان ، فيستكثر فى الربيع من البارد اليابس وتهجر الحلاوات واللحوم والبيض ، ويبالغ فى الصيف من نحو اللبن والبقول الباردة ويهجر كل حار يابس ، ويضيف ، ومن أقوال الحكماء « من أراد البقاء فليباكر بالغداء ولا يتماسى فى العشاء ولا يأكل على الامتلاء ، فانما يأكل المرء ليعيش » .

وكذلك يتابع داود فى الباب الأول من كتابه كليات هذا العلم والمداخل إليه ، أشباه ما ذكرنا من نصائح عامة .

أما الباب الثانى فقد خصصه داود بما أسماه القوانين الجامعة لأحوال المفردات والمركبات ويقول إن هذا الفن الأعظم والعمدة الكبرى فى هذه الصناعة والجاهل به مقلد لا يجوز الركون إليه ولا الوثوق بهِ ولافى أمر نفسه لاحتمال أن يأكل السم ولم يدر ، فان بعض المفردات فى أشخاصها نفسها ، منها ما هو سم كالأسود من الغاريقون (أنواع من عش الغراب) والأغبر من الجندياستر والأزرق من الحلتيت . ولا شبهة فى أن الجاهل بالمفردات متعذر التركيب ومعرفته لا تتم إلا بالوقوف على النبات فى سائر حالاته .

يقول داود ، وأول من ألف فى هـــذا الفن « ديسقدريدوس » ويعتب عليه إهماله الكمون والسقمونيا والغــــاريقون ثم « روفس » ثم « فوليس » ثم « أندروماخس » .

ثم انتقلت الصناعة إلى أيدى النصارى ، منهم دويدرس البابلى ، وإسحق بن حنين النيسابورى الذى عرب اليونانيات والسريانيات وأضاف إليها مصطلح الأقباط لأنه أخذ العلم عن حكماء مصر وأنطاكية ، واستخرج مضار الأدوية ومصلحاتها ، ثم تلاه ولده حنين ففصل الأغذية من الأدوية فقط . ويستطرد داود : ولم أعلم من النصارى من أفراد غير هؤلاء :

ثم انتقلت الصناعة إلى الإسلام ، وأول واضع فيها الكتب من هذا القسم الإمام محمد بن زكريا الرازى ، ثم ابن سينا رئيس الحكماء فضلا عن الأطباء فوضع الكتاب الثانى من القانون . ثم ترادف المصنفون على اختلاف أحوالهم فوضعوا فى هذا الفن كتباً كثيرة من أجلها : مفردات ابن الأشعث ، وأبى حنيفة والشريف وابن الجزار والصائغ وجرجس بن يوحنا وابن الدولة وابن التلميذ وابن البيطار ، وأجلها كتاب يحيى بن جزلة ، وآخر من وضع فى هذا الفن محمد بن على الصورى .

ويقول داود بعد أن يستعرض أعمال هؤلاء العلماء العرب الذين سبقوه فى التأليف فى هذا الفن : إن كلا من هؤلاء لم يخل كتابه مع مافيه من الفوائد عن إخلال بالجليل من المقاصد مايبدل ، أو إصلاح أو تقدير أو إطلاق للمنفعة وشرطها التقييد ، وكالتخليط والتكرار من جهة الأسماء ، كذكرهم القطلب فى محل وقاتل أبيه فى آخر ، وكلاهما واحد ، وفى المضار ، كقولهم فى الزنجبيل إنه باللثة مع أنه ضار بالصفراويين مطلقاً وبالكلى من المهزولين ، وفى المصلحات ، كقولهم فى السقمونيا ويصلحها الأهليلج الأصفر ، مع أن هذا فى الصفراويين خاصة وفى السوداويين الكثير أو فى الأوزان ، كقولهم فى « الماهورانه » حد الشربة منها خمس عشرة حبة ؛ ولعمرى إن هذا القدر لقاتل لامحالة ، وفى حب النيل أن حد الشربة منه نصف درهم ، ولقد شاهدت من شرب منه ثمانية عشر درهما .

وفى الحق أن داود كان بارعاً ، رائعاً ، أمينا فى نقده لسلفه من أرباب هذه الصناعة ، فذكر مالهم وماعليهم ووعد بأن يذكر ماأغفله أهل هذه الصناعة وما حدث من الأدوية والتجارب لهم وله حتى سنة ست وسبعين وتسعمائة من الهجرة حين كان يملى كتابه الفذ « تذكرة أولى الألباب » و « الجامع للعجب العجاب »

وقد اختط داود لنفسه خطة فى مفرداته قال إنها تتكون من عشرة قوانين. ولاشك عندى أنه تأثر بالشيخ الرئيس فى كتابه فى هذا الفن الصيدلى، ولكنه أضاف وصحح وحقق، وأتى بالعديد من المفردات والمركبات مما لم يذكره سلفه العظيم.

أما القوانين العشرة، التى التزمها داود فى مفرداته فهى: —

الأول: ذكر أسمائه بالألسن المختلفة ليعم نفعه:

الثانى: ماهيته من لون ورائحة وطعم وتلزج وخشونة وملاسة وطول وقصر؛

الثالث: ذكر حسنه ورديئه ليؤخذ أويجتنب:

الرابع: ذكر درجته فى الكيفيات الأربع ليتبين الدخول به فى التراكيب:

الخامس: ذكر منافعه فى سائر أعضاء البدن.

السادس: ذكر كيفية التصرف به مفرداً أو مع غيره:

السابع: ذكر مضاره.

الثامن: ذكر مايصلحه:

التاسع: ذكر المقدار المأخوذ منه مفرداً أو مركباً مطبوخاً أومنشفا، بجرمه أو عصارته، أوراقاً أو أصولا إلى غير ذلك من أجزاء النبات المختلفة:

العاشر: ذكر ما يقوم مقامه إذا فقد:

ولعلنا إذ نقف وقفة عند قوانين «داود» نجد أنها قد أوفت على الغاية من حيث الطريقة العلمية الصحيحة من تحقيق للأسماء حتى لانخلط بينها، ومن ذكر للمنافع والمضار، والمقادير الدقيقة التى يتناولها المريض وطريقة التناول وذكر البديل الذى يمكن استعماله إذا استعصى العقار الأصيل:

ومع ذلك فقد أضاف داود أمرين على أعظم جانب من الأهمية والخطورة بالنسبة لصناعة الصيدلة وتحضير العقاقير:

الأول: الزمان الذى يقطع فيه الدواء ويدخر حتى لايفسد:

الثانى: من أين يجلب الدواء ككمون سقمونيا من جبال أنطاكية.

والممارسون للعمل الأقرباذينى والصيدلانى، يعلمون أهمية الزمن الذى يقطع فيه الدواء، لكى نحصل على أكبر قسط من العقار المطلوب، فإذا كان ورقاً أو زهراً أو ثمراً أو أصولا، فإن لجنيها موعداً لا ينبغى أن تجنى قبله أو بعده، وإلا تلف العقار أو لم يأت بالفائدة المطلوبة، أو فقد فاعليته، أوغدا ضاراً بدلا من أن يكون مصلحاً مفيداً؛ كما يعلمون أهمية جلب العقار من مكان معين أو النبات من منبته فى موطن خاص؛ ونحن نعلم مثلا أن بصحـــارينا نوعاً من «السكران» يفوق فى مادته العلاجيـــة وجوهره الفعال كل أنواع السكران فى العالم، كما نعلم أن للبيئة التى ينمو بها النبات أكبر الأثر على فعاليته كعقار: فقد تحقق داود من هذين الأمرين منذ مئات السنين، فقال وينبنى على ذلك فوائد مهمة فى العلاج، فقد قال أبقراط عالجوا كل مريض بعقاقير أرضه، فانه أجلب لصحته، وإنما كان التداوى والاغتذاء بهذه العقاقير للتناسب الواقع بين المتداوى به.

ويعتبر الباب الثالث من تذكرة داود أهم أبوابها، وأنه ليتضمن المفردات والأقرباذينيات مرتبـــة على حروف المعجم فأورد عدة مئات من أسماء النبات والحيوان والعقاقير المتخذة منها أو من عناصر أو أملاح كماوية وبالجملة كل ما يتداوى به:

أولا — النبات

يقول عن «آ لوسن» — يونانى وهو رجل الغراب، وبمصر جزر الشيطان، وبالشام حشيشة النجاة والسلحفاة لأنها ترعاه كثيراً، وتعريبه مبرئ الكلب، يطول بساق كالرازيانج وورقه بين حمرة وسواد، وزهره

إلى الغبرة أشبه ما يكون بالحلة ، لولا تفاريعه ، وأكاليله إلى عرض يسير بطبقتين ، يفرك عن بزر كالنانخواه ، إلى الخضرة والحدة والحرافة والمرارة وثقل الرائحة ، ويغش بالوخشيزك ، والفرق بينهما المرارة يقطف فى أول حزيران أعنى بشنس أو يوليه ، يبرئ الآثار طلاء بالعسل وينقى الكلى ويهضم الطعام ، وبدله حشيشة الفار أو حب الفار ، مثل نصفه أو مثلاه نانخواه .

والأطريال : تعريبه « رجل الطير » ويسمى أيضاً جزر الأرض وهو كالشبت ساقا ، والحلة صفة ، لكنه مفرق ، وزهره أبيض ، يخلف بذراً إلى الغبرة ، حاد حريف حر الطعم ثقيل الرائحة ، إلى طول مشرف الأوراق، يقطف من نصف آيار إلى نصف حزيران ، ويغش بالحلة ويعرف بالحب ، وبالبقدونس ويعرف بنقص المرارة يستأصل شأفة البلغم وينقى الكلى والمثانة ، ويفتت الحصا شرباً بالعسل ويجفف الجروح ضماداً . أما نفعه من البرص ، فأمر يقينى قد تقرر .

وقال عن الأبهل « هو-بيوطس باليونانية » ، صنف من العرعر ، منه صغير الورق كالطرفا ؛ وكبير كالسرو ، ويقارب النبق فى الحجم ، فيه حلاوة وقبض وحدة ، ويغش بالسرو وهو أصغر منه ، وبالطرفا ، ويعقد بالعسل فيخرج آفات البطن كالديدان ومسحوقه يذهب الربو والبواسير أكلا ، وداء الثعلب طلاء .

وعلى هذا النحو تكلم داود عن الآباز والأترج والأثل والأثرار يقول واسمه « الامبرباريس » ويطلق على تركيب خاص تعريبه « المنقذ من الأمراض » ويعزى إلى جالينوس ويعرف بطعم البلسان ، ينفع من السعال المزمن والصداع وأوجاع الصدر والمعدة وقذف المدة والدم وضعف الكبد والأمراض البلغمية ويخلص من السموم المشروبة ، ثم يصف فى إسهاب طريقة تحضير الدواء . ويقول عن الأذخر : يسمى بمصر حلفاء مكة ، نبات غليظ الأصل كثير الفروع دقيق الورق إلى حمرة وصفرة وحدة ثقيل الرائحة عطرى ، يدرك بتموز (يوليه) وأجوده الحديث الأصفر المأخوذ من الحجاز ثم مصر ، والعراقى ردىء ، ويغش بالكولان ، والفرق صغر ورقه ، يحلل الأورام ويسكن الأوجاع من الأسنان وغيرها مضمضة وطلاء ، ويقاوم السموم ويطرد الهوام ، ويفتت الحصى ومع المصطكى يشفى من فضول البلغم وبالسكنين الطحال وبماء النجيل عسر البول ومع الفلفل الغثيان .

وكذلك وصف الآراك وقال إنه عربى لم يذكره اليونان لأنه ينبت فى أقاليمنا . وعن الأسل قال إنه عربى وهو السمار وعندنا يسمى البوط وكذا الآس وأسد العدس وهو الهالوك ، والقاقلة أو الهال أو حب الهال (الحبهان) والقرنفل وفلفل الماء وفلافل السودان وفلفل القرود (حب الكتم) والفنا وهو عنب الثعلب والفوة وتسمى عروق الصباغين ، والصندل والضال والعشار والصفصاف والمتك والنسرين والغافث والغار والرازيانج ولسان الثور واللعبة . المرة ويقول عن اللبخ كان معروفاً بالسمية بفارس فلما نقل إلى مصر صار دواء . وكثيراً ما يضيف داود ومن مجرباتنا ، ويذكر ما أعده بنفسه من عقاقير وما جربه من أدوية ووصفات كما يصف فى إسهاب وتفصيل طريقة تحضير الدواء فيقول (صنعته).

ثانياً ــ الحيوان :

كذلك أورد داود وصفاً ممتعاً لكثير من أنواع الحيوان ، مما يتخذ منه أو من بعض أعضائه عقاراً فقال « أبو عرس » ، باليونانية « سطيوس » ، حيوان يألف البيوت بمصر ، ويسمى العرسة ، والفرق بينه وبين الفأر طول رجله ورأسه . يبرئ من السموم كيف كان خصوصاً من طسيقون أى النبات الذى تسقى به

السهام فتسم ، وينفع الكبد ، ويوضع مشقوقاً فيجذب السم والسلا .

الأرنب وفوائده فى العلاج والأسفنج والأسد وأســد الأرض ، وهو الحرباء والأفعى وأنواعها كثيرة والمختار منها للتداوى والترياق الإناث الرقاق السراع الحزكة غير بيض ولا رقش ، والأيّل ، قال هو الكبش الجبلى ، إذا أحرق قرنه كان دواء مجرباً لقرصة المعى ونفث الدم والإسهال وينقى الأسنان ، ويشد اللثة ... الخ . والبازى والباشق والبط والبقر ، والبق ، والبلبل ، وأنواع من الحيــوان تسمى « بنات » ذكر منها بنات الشيخ ، وبنات وردان ، وأنواع أخرى من البنات مثل بنات النار ، وبنات الرعد ، وتكلم عن التدرج وهو السمان عندنا وبمصر ، وهذا الاسم بلغة العراق ، وهو طائر فوق العصفور وتحت الحمام ؛ وعن التمساح هو حيوان مائى فى الأصل لكنه يعيش فى البر ، يقال إنه أغلظ الحيوانات جلداً ، قيل إنه من خواص نيل مصر ، وإنه يحرك فكه الأعلى دون سائر الحيوانات : والتنين اسم لما عظم من الحيوانات . والثعلب والجاموس والجرّى (بكسر الجيم وتشديد الراء) سمك ليس له عظم غير عظم اللجين والسلسلة وهو القرموط ، والجراد والجمل والحبارى والحجل ، قال طير أغبر إلى الحمرة ومنه مرقش أحمر المنقار ورأس جناحه مطرف بالبياض والسواد كثير الدرج قليل الطيران . والحدأة قال : هى الشوحة وهى من سباع الطيور معروفة كثيرة الوجود . والحردون حيوان كالورل الصغير والضب إلى سواد وصفرة ، يوجد بالبيوت والجبال . والحرباء دويبة كالجراد ذات قوائم أربع تتلون بلون ما تمشى عليه وتنفخ كثيراً ولها أنياب حادة ، وهى مولعة بالنظر إلى الشمس تدور معها فإذا صارت فوق رأسها تحيرت وضربت بلسانها حتى يعود الظل . والحمام يقول فى اللغة كل ما عب وهدر وكان مطوقاً ، والمراد به هنا الأزرق البرى والملون الأهلى ولباقى الأنواع أسماء أخرى كالفاخت والشفنين والقمرى والخطاف ، وقال هو السنور وعصفور الجنة وهو طائر شديد الحرارة ، لا يأوى البلاد الباردة إلا زمن الربيع ، وغلط من ظنه هندياً لأنه لا يذهب إلى الهند إلا زمن الشتاء ، فإذا جاء الصيف عاد ففرخ فى الشام ومصر ؛ والخفاش ، والخلد ، قال حيوان فى حجم ابن عرس لكنه ناعم سبط وله ناب أحــد من السكين يحفر به الأحجار ، أقوى الحيوانات سمعا ؛ ثم الدب والدجاج ، والدراج ، قال هو السمان وهو طائر فوق العصفور مشيه إذا أمن أكثر من طيرانه ؛ والدلفين والدلم والدلدل والدلق والذئب والرخمة ، يقول طائر بين النعام والأوز أبيض ، عيناه شديدتا الصفرة يسكن الجبال والبرارى المقفرة ، والرخ والرعاد وقال عن « الروبيان » يريد الجنبرى يكثر ببحر العراق والقلزم أحمر كثير الأرجل نحو السرطان ، لكنه أكثر لحما والروم تعرفه بابوجلنبو ، وهو مدملج ؛ والزاغ وهو نوع من الغربان ؛ والزبزب وهو المعروف الآن بالثغا يبلغ حجمه الكلب كثير الصــوف مخطط الوجه ناعم . والزرافة والزرزور والسحلية وسام أبرص والسرطان والسقنقور والسلحفاة والسمانى والسمك والسنجاب والسفور والسيبيا والشفنين وهو طائر أبيض يدور السواد حول عنقه ؛ والشقراق وهو طائر يقارب الحمام حجما بين حمرة وخضرة وسواد ؛ والصقر والطاوس والظليم وهو ذكر النعام ؛ والعظاية والعقرب والعقاب والقلق والغراب والغزال والفأر والفاختة وهى اليمام والقطا والقمرى والقنفذ والكركى والنسر والنعام والنمر والهدهد :

ثالثاً ـــ المعادن

أورد داود عدداً من المعادن قال إنها من العقاقير التى تلزم فى صناعة الطب فذكر « أباز » وهو الرصاص المحرق بالنار فى قدر ، إذا أطبقت صفائحه بالكبريت

أو الإسفيداج وأحرق وغسل وأعيد عمله حتى يكون هباء ، ينفع من الحروق مطلقاً سوى الشرى ، ويصلح العين ويحلل الأورام بالخل ؛ « أثمد » بالسكر الكحل الأصفهانى والأسود ، وهومن كبريت ضعيف وزئبق ردئ عقدتهما الرطوبة الغريبة بالحرارة الضعيفة فلذلك اسود ، ومولده جبال فارس والمغرب وأجوده الرزين والبراق السريع التفتت ، اللذاع بين مرارة وحلاوة وقبض ، وهو قابض مكثف ، يشد الأعصاب ويقطع الدم مطلقاً ، وتغسله أهل مصر بماء طوبة فيصير غاية فى حدة البصر وحفظ صحة العين خصوصاً بالمسك ، يجلو الغشاوة والبياض ومع الحضض والسماق يقطع الرطوبات ويشد الأجفان — وتكلم عن الإسفيداج ، والبارود ، قال ويسمى عندنا « الأشرش » والملح الصينى ، أجوده البراق الرزين الحديث الأبيض السريع التفركة ، وقال عن الباسليقون من الأكحال الملوكية ، صنعه أبقراط ، وكذلك مرهم الباسليقون ومعناه جالب السعادة ، وشرح داود طريقة صنعه من نحاس محرق ، وإسفيداج الرصاص وملح أندرانى ونوشادر .. الخ . وتكلم عن البرادى فقال إنه حجر خفيف أصفر إذا حك ضربت سحالته إلى البياض ، نقى اللون يتكون ببلاد العراق يشارك الكهرب والسندوس فى جذب التبن . ويقول عن البورق يطلق على أنواع كثيرة ، ولكن المتعارف عليه هو الأبيض الخالص اللون الهش الناعم ، ويسمى بورق الصاغة ، لأنه يجلو بها الفضة جيداً ، وبورق الخبازين هو الأغبر ، والنطرون هو الأحمر ؛ وقال عن « التوبال » معرب من تنبك الفارسية ، وهوعبارة عما يتكاثر من المعادن عن السبك والطرق وأجوده الصافى البراق الرقيق ، وهو تابع لأصله ، نحاسى ، أوذهبى أو فضى يقع فى المراهم ويستعمل فى أغراض طبية كثيرة . والثلج الصينى ، يطلق على البارود والجزع حجر مشطب فيه كالعيون بين بياض وصفرة وحمرة وسواد وهو معدن بأقصى اليمن . والجص وهو الجبس والجمشت ، حجر أبيض وأحمر وأسمانجونى . وحجر اليهود ويسمى زيتون بنى اسرائيل وهو حجر يتكون ببيت المقدس وجبال الشام ويكون أملس مستديراً أو مستطيلا وأجوده الزيتونى المشتمل على خطوط متقاطعة (وهو حيوان متحجر) ، وحجر القمر ويطلق على الحجر الذى يجذب الفضة إلى نفسه وحجر السلون وحجر الأسفنج . ويسمى داود الأوساخ الخارجة من المعادن وقت سبكها يسميها « خبث » ، ويقول إنها جيدة للقروح إلا أن خبث الحديد أحسنها والرخام والرصاص والروسختج ؛ وأضاف : ويقال راسخت ، أول من صنعه أبقراط ثم فشا فى الناس وأجوده القطع الغليظة الغبر بين حمرة وسواد ، من أكبر عناصر الاكحال وأدوية العين ، وشربه ينفع من الاستسقاء والماء الأصفر وصنعته أن يصفح النحاس رقاقاً ويطبق فى قدر وبين طباقه ملح وكبريت أو شب وكبريت ويوضع فى الأتون أسبوعاً . وتكلم عن الزاج وأنواعه وألوانه والزاووق وهو الزئبق والزبرجد والزرنيخ والزمرد والزنجار والزنجفر والزئبق والسيح وهو فيما يقول حجر جبلى ، والسبناذج وهو حجر المسن ، ويقول عن الطاليقون إنه فى النحاس كالفولاذ فى الحديد يتخذ بالعلاج ، وهو أن يذاب ويطفأ وقد طبخ فيه الأشنان الأخضر مراراً وقد يجعل معه قليل رصاص ويسمى نحاس صينى — والطلق والعقيق والفيروزج والكبريت واللازورد وذكر اللؤلؤ والماس والياقوت .

الجزء الثانى من الكتاب

وقد بدأ داود الجزء الثانى من كتابه بالباب الرابع وخصه بتفصيل أحوال الأمراض الجزئيـة واستقصاء أسبابها وعلاماتها وضروب معالجتها الخاصة بها ، ثم ذكر بعض القواعد وقال إنها تجرى منه

مجرى المقدمة ، وقال إن لكل موجود أربع ، «مادية» وهى الأصل ، و « صورية » وهى العين و « فاعلية » وهى المؤثرة ، و « غائية » وهى جواب لِمَ وُجد .

يقول والمصادر الأولى للعقاقير ثلاثة : المعدن ، ثم النبات ، ثم الحيوان . ثم يسرد داود عدداً من القواعد مثل : —

قاعدة

ما كان أصلا لشيء ، فذلك الشيء المفرع على الأصل ، لابد وأن يشابه أصله بوجه ما ، وقد تتعدد الأصول فيتعدد الشبه ، إما على التساوى أو التفاضل . وقد ثبت أن ما عدا الإنسان من أنواع المواليد أصول له ، فيكون فى أفراد أنواعه ما يشبه الحيوان شجاعة كالأسد ، وحقداً كالجمل ، ومكراً كالذئب ؛ وجبناً كالأرنب ، وما يشبه النبات نفعاً كالقرنفل ، وضرراً كالسيكران وطعماً حلواً كالعسل أو مراً كالصبر ، وما يشبه المعدن صفاء كالذهب ، وخبثاً كالرصاص .

قاعدة

ما كان قابلا للتغيير وكانت موجبات تغيره غير مضبوطة ولا مأمونة فحفظ نظمه الطبيعى ، إما متعسر أو متعذر ، وعلى هذا تتفرع الحاجة إلى وضع قانون يفيد حفظ النظام أو رده إذا زال ، ومن ثم كان الطب قسمين : علماً ، هو الكلى — وعملاً ، وهو الجزئى .

قاعدة

إذا تعلق الحكم بأصل هو الأس فلا بد من ملاحظته فى الفروع وإن كثرت ، وقد عرفت أن عناية أول الأوائل اقتضت الربط والقلق وتوقف ما فى الكون والفساد على حركات ما فوقه فلا بد من تعليل ما فى أحدهما بالآخر ، والبسيط لا يطلقه التغير بخلاف المركب ، وقد عرفت أن أفضل أنواعه النوع البشرى فهو أحق بذلك ، ويتفرع على هذه حصر العلوم والألوان والأراييح وغيرها من الكيفيات والأغراض ، ومن هنا كانت الأمور الطبيعية مفتاحاً لهذه الصناعة ثم الأسباب لكونها كالفروع وعلى ذلك يدور حكم العلاج الجزئى ..

وعلى هذا النحو عرض داود نحوا من عشرين قاعدة ، جعلها دستور بحثه فى هذا الجزء من الكتاب ، ثم رتب الأمراض على حسب الحروف الأبجدية فتكلم عن الاستسقاء وأنواعه ، وبين أعراض كل نوع أو كما يسميها علامته ، فيقول إن أنواع الاستسقاء ثلاثة اللحمى والزقى والطبلى ، ثم يعقب بوصف طريقة العلاج فى كل حالة ، وقال عن الأكلة اسم لما خبث من الخلط وأكل من مصدره إلى سطح الجلد ، وهى من الأمراض الظاهرة بصورها وإن كانت باطنة ثم يشرح أسبابها وعلاماتها ثم طرائق العلاج ، ثم يقول : ومن الوضعيات المجربة لها . أو من اختراعنا .

وأم الصبيان ، مرض يعترى الأطفال ، يقول وسببه عند الأطباء رطوبة ... الخ . وعند غيرهم نظرة من معيان يريد من حسود أو وقعة خصوصاً فى الأماكن المألوفة للجن كالحمامات والأودية والأعتاب ، يقول ولا فرق بينه وبين الصرع إلا عدم خروج الزبد .

والإعياء ويميز بين الإسهال الطبيعى أو بمصاحبة حمى ورجع ، وإن كان معه دم فهو الدسنطاريا الكبدية أو المعائية والمصحوب بالقيء هو الهيضة .

ثم أورد أمراض البخر والبرص والبهق والبواسير والبثور والبرد .

وتكلم عن البيطرة والجذام ويسمى داء الأسد والجرب والحمرة والجشاء والجَبْر وداء الحية والثعلب وداء الفيل والداحس وهو ورم الأظفار

والدمامل ودمعة العين والديدان والديابيطس والزكام والزحير والحميات والحصى من أمراض الكلى والمثانة والحكة والحفر والطاعون والطرش :

الجزء الثالث .

أما الجزء الثالث من الكتاب ، فهو كما قيل فى عنوانه تذييل لبعض تلاميذ صاحب التذكرة ، تكلم فيه عن البرقان واليقظة والكابوس والكمته وهى من أمراض العين ، ثم أمراض الكلى وأمراض اللسان واللثة والمفاصل والنسا والمعدة والمعا والمغص وأمراض المثانة والماليخوليا والنبض والناسور والنفاطات وهى بثور حمر تبدأ بارتفاع يرق معها الجلد وتعطى اللمس رخاوة كالزق وتتفتأ عن ماء وصديد ، والربو والنزق والسكة والسلان (من أمراض العين) والسعفة وهى قروح فى أصول شعر الهدب والسرطان والسيلان — وخص أحد فصول هذا الجزء بعلم التشريح وأمراض العين والصفراء ، والصلع والسنط وهو الثاليل والقوابى والقراع والقلاع والقئ والتشريح والتشنج والرعشة والكزاز والخدر والاختلاج والنزلات وأم الصبيان وهى انصباب مواد على الصدر تعسر التنفس والقدر ، والخفقان وذات الرئة وذات الجنب والظليعة وهى علة تصير معها الأظفار براقة إلى البياض تنكسر كالزجاج ، والغثيان .

وصفات عامة وخاصة .

وقد أورد داود عدداً من الوصفات العامة والخاصة ، ذكرها فى ثنايا كتابه ، فذكر عدداً كبيراً من أنواع السفوف والترياق والسعوط ، والمراهم والمعاجين والدهانات والأكحال ، واللعوقات والأشربة وأحياناً ينسب التركيب إلى مبتدعه ، فيقول سفوف ابن سينا ومرهم أبقراط ، وسعوط جالينوس ، ويقول عن سفوف المعلم (يريد أرسطو) ، يحكى أن الاسكندر أرسل إليه يشكو سوء الهضم ، ويطلب دواء جامعاً ، يغنى عن غالب الأدوية ، وينفع من غالب الأمراض ، فأرسله أرسطو إليه قائلا « إجعله الحكيم الحاضر ، واستغن به عن الأطباء ، وهو نافع من الوسواس والصداع وضعف المعدة والرياح الغليظة ، والذرب ، والبخار ، ويقطع العرق الفاسد ، ورائحة البدن الخبيثة من سائر الأعضاء ، ويذهب النسيان ، ويفتح الشهية ويهيج الباه ، ويدفع الحرقة ، ثم يورد داود صنعته أى تركيبه .

وثمة سفوف يفتت الحصى ، وسفوف الطين لجالينوس ، وعشرات من أنواع السفوف ، وعشرات من الأشربة مثل شراب الزوفا ، وشراب الابريشم ، وشراب الأترج ،وشراب التفاح ، وشراب العود ، وشراب الورد ولكل استعمالاته ، ولكل فوائده العلاجية :

ويقول عن « سوطيرا » إنها لفظة يونانية معناها المخلص الأكبر ، اتفق الأطباء على أنه مضمون النفع عظيم القدر ، يقارب الترياق الكبير ، يبرئ من الصرع ، يقول داود ، وقد حللت منه نصف مثقال فى المريافلن وسقيت منه مسموماً غاشيا فأفاق لوقته ودلكت منه لسان مفلوج من الجانبين فخلص بعد ثلاث وقلعت به البياض قطوراً بلبن النساء ، وهو ينفع من الأوجاع الكائنة فى الدماغ والعين والصداع والصرع والجنون وأوجاع الأسنان والرئة والجنب والكبد والبواسير والرعشة والطحال وضعف الكلى ، والمثانة ، ويذهب النقرس والمفاصل والنسا والتشنج والبحة ، وسائر السموم وأوجاع البطن ... الخ .

وكذلك يذكر داود عشرات الضمادات ، فهذا ينفع من أوجاع البطن وغيره لفسخ العصب والصداع وذلك للأوجاع الباردة ، وآخر للرئة والنزلات

الحارة وغيره للقوابى وآخر للأورام ، وغيره للعلل التى فى المفاصل والنسا .

وتكلم عن أنواع الطبيخ وفرق بينها وبين الأشربة فثمة طبيخ الأفتيمون وطبيخ الأصول ، وطبيخ الفواكه ، وطبيخ الزوفا وغيرها من الأطبخة ، وقد حدد داود لكل طبيخ طرائق صناعته وما يستعمل له من أمراض .

وكذلك تكلم الشيخ عن الأطيان (جمع طين) وخواصها الطبية ومنافعها ، واستعمالاتها مثل طين شاموس وغيره ، ثم عرض للأطيان المركبة ، تؤخذ من الأحجار بنسب مختلفة . كما تحدث عن العصارات وهى مايعتصر من النبات ، ويترك حتى يجف بالشمس وبذلك يفارق الربوب وهى كثيرة كالأقاقيا والماميثا

ثم يتابع الشيخ هذه الوصفات العامة ، فيذكر الغاليات (جمع غالية) ويقول وهى من التراكيب القديمة الملوكية ، ابتدعها جالينوس ثم توسع فيها وأسهب فى ذكر صنعتها وخواصها ، كما ذكر الفتائل (جمع فتيلة) قال منها ما يقطع الدم ، ومنها مايجذب من أعماق البدن .

كما أورد عدداً من الفرزجات جمع فرزجة ، ولكل استعمالاتها وفوائدها . وتحدث عن الأكحال مثل كحل الزعفران ، وكحل جلاء ، وكحل السادج الهندى ، وكحل الباسليقون ، وكحل الرمادى ، وكحل وردى والأثمد وما إليها من أدوية للعين ، والقطرات والمراهم التى تصلح العين وتجلو البصر وتحده .

ولم ينس الشيخ مياه العيون والآبار ، وخواصها العلاجية ، يذكر موضع العين أو البئر ، ويصف ماءها وفوائده واستعمالاته .

مالا يتفق والذوق العام أو أصول الطب الحديث

فى ثنايا كتاب داود « تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب » الكثير جداً مما لا يتفق والذوق العام ، وما لا يمكن أن يسيغه الطب الحديث ، ولا أظنه يمكن الدفاع عنه ، وأعتقد أن شيخنا قد استجاب فى ذلك للمعتقدات العامة أو اعتمد على العامل النفسى فى العلاج ، كأن يقول « إن حمله يدفع العين » أو « إن أدامة النظر فيه تقوى البصر » ، أو إن دمه طرياً يقلع البياض وزبله يقلع الكلف ، أو أن يقول « ومن خواصه ، أن صاحبه لا يموت غريقاً » وحمله يقوى القلب . أو « أن شرب مثقال من روث الكلب الأبيض مع ربع مثقال من الكبريت معجوناً بالشيرج يقلع ما استعصى من الجرب » أو أن يقول فى الحصاة ، « قيل يوضع دف على الأذن وينقر عليه ، فتسقط الحصاة » .

ولا يمكن أن نسيغ فى العصر الحاضر التوصية باستعمال أمثال ما ذكرت من وصفات بدلا من المضادات الحيوية أو تراكيب السلفاناميد أو النظائر المشعة ، أو مختلف الأشعات الكهربائية إلى غير ذلك من مبتكرات العلم فى العصر الحديث من أمصال وحقن ، ولقاحات أصبح مفعولها مؤكداً .

ما ليس من الطب أو الصيدلة فى شىء

وقد حفل كتاب داود ، على عادة الأقدمين ، بما ليس من الطب أو الصيدلة فى شىء ، فمنازل الكواكب وبروجها والرقى والتعاويذ والفوائد والأدعية ، وأحاديثه فى الجغرافيا والفلك ، إنما كان همه الجمع والتدوين ، فهو يدون ما وعيه من معرفة فى هذا الباب أو ذاك ، ولا أظنه مما يمكن أن يتضمن فى عرض هذا الكتاب الذى شهر بالطب والصيدلة ، أن نعرض لما ذكره داود من معلومات فلكية أو جغرافية ، أو من الرقى والتعاويذ وما أشبه .

خاتمة

وبعد ، فهذا عرض سريع موجز لعمل عالم من

أعظم علمائنا الموسوعيين ، لا شك فى أنه أحد العمد التي قامت عليها صناعة الصيدلة ، ما أحوجنا إلى دراسة هذا التراث وتحقيقه ، وتنقيته من الشوائب ، ونشره وعرضه على الناس فى ثوب جديد وبأسلوب علمي حـديث ، وإنما يقوم على ذلك نفر من سدنة هذا العلم فى عصرنا الحديث وفى جمهوريتنا الفتية . ولا مراء فى أن كتـاب « تذكرة أولى الألباب ، الجامع للعجب العجاب » سيظل عمدة لأهل صناعته ، ونهجاً يحتذى فى البحث والتأليف ، ولا شك أنه كان يلائم العصر الذى كتب فيه ، ولو قد أعيد تحقيقه ونشره بأسلوب العصر وأضيفت إلى مادته العلمية ما استحدثه العلم من أساليب وطرائق لكان فذاً فى موضوعه وفريداً فى بابه ولظل بحق كما كان أبداً تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب .

